



تُعرف العقيدة العسكرية بأنها "مجموعة من القيم والمبادئ الفكرية التي تهدف إلى إرساء نظريات العلم العسكري وعلوم فن الحرب، لتحديد بناء واستخدامات القوات المسلحة في زمن السلم والحرب بما يحقق الأهداف والمصالح الوطنية".

عندما تتحرف عقيدة الجيش العسكرية، تتحرف بوصولته بالكلية، ويتناقض الشعار مع المحتوى، تماماً كما هو حال فيلق القدس الإيراني - وسواء من جحافل غثنائية واقعنا المعاصر-؛ خطأ في المضمون وخطأ في البوصلة يضل معه الجميع الطريق، ليس إلى القدس وحدها.

وعندما لا يدرك الجيش من القدسية سوى قذاسةولي أمر الوطن لا الوطن، ولا يعرف من الانتماء سوى الانتماء لمن يحكم الوطن بدلاً من الانتماء للوطن ذاته، فلا عجب أن يحيد عن مهمته الأساسية في الدفاع عن ذاك الوطن.

فغير مجموعة من السنن الكونية والقواعد الإنسانية والدستورية الثابتة، يمثل الوطن الامتزاج الأرقي بين الأرض والإنسان، فعلى أي أساس يُختزل هذا الوطن في حفنة قليلة من الأشخاص؟

لا ريب أن التجرد من الانتماء للوطن بمفهومه الشامل كاف لتجريده من يُكلف بالذود عنه من الكثير مما يمت لقواعد السلوك والشرف العسكري، الذي يميز الجيش النظامي عن العصابة الإجرامية بصلة.

ومن الطبيعي أن يكون مرد مثل هذا الانحراف خلل في الفكر على مستوى المجتمع ككل - لا على مستوى الجيش فحسب-؛ خلل أعلاه جهل وأمية في فهم مقاصد النصوص وصولاً إلى أمية الإحساس - أساساً لكل أمية فكرية كانت أو تربوية أو

سياسية أو سواها.. والمحصلة انحطاط المرء من مرتبة الإنسان الحر إلى دونية العبد المرتزق.

ولا يقتصر مفهوم الارتزاق - ومن معالمه شيوع ظاهرة المرتزقة - على المؤسستين العسكرية والأمنية، بل قد يتسع ليشمل مختلف شرائح المجتمع، وذلك عندما يشتري الخوف على الرزق خيارات الناس ومصائرهم، مغرياً القوم بالتنازل - بداعي من الخوف أو الحرص على الرزق - عن بعض حقوق مواطنهم الإنسانية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي تكفلها لهم الدساتير كافة بما فيها العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم.

وتبعاً لتغريب مفهوم المواطنة سواء لدى الشعوب المحكومة بالفعل أو تلك التي يُراد التحكم بها، يتحول دور الجيوش النظامية والهيكل الأمنية بمرور الوقت ليصبح أقرب لدور جحافل وقطعان المرتزقة - وإن بدت في شكلها نظامية -، ليتمكنها أن تأخذ - حسب الجرعة - شكل العصابة المafية أو الميليشيا الإجرامية.

ينطبق ذلك على الاحتلال الأجنبي المباشر، كما ينطبق على الأنظمة التي تقوم بدور الوكالة المحلية أو الإقليمية لهذا الاحتلال كشكل من الاحتلال غير مباشر. واقع يتمثل فيه جوهر الحالة المجتمعية في نفس عبد مرتزق بكل ما يعتريه من غذائية ومادية وأنعدام أخلاق وإنسانية، وبما يقوم عليه من خضوع ينفذ - بلا تفكير كهاتف عملة - كل ما يتلقى من أوامر أو ما ينطط إليه من أعباء.

حين تسود الغذائية تغيب الموازين، ويعجز الفرد عن وضع أي أمر في الميزان يقيس به المشروعة أو - على الأقل - مدى انسجامه مع القواعد الدستورية، ولا نقول القواعد الإنسانية التي لا تعد لدى عديمي الشرف المدني أو العسكري قضية.

وهنا ينبغي التمييز بين عصابات المرتزقة التي تحمل لواء العبودية وميليشيا حرب العصابات التي تحمل لواء الحرية، إذ تنتصر الأولى في مواجهاتها غير المتكافئة بوجه المدنيين البسطاء - العُزل من السلاح - بلا نصير يصد عنهم تلك القوة الغاشمة القائمة على الفارق المادي ومن ضمنه التسلیح.

ما يكشف عوار حثارات المرتزقة هو معاركها الحقيقة بوجه ما يكافئها عسكرياً في المقدار ويعاكسها في الاتجاه في الحروب التقليدية، أو بوجه الانتفاضات الشعبية أو ميليشيا حرب العصابات في الحروب غير التقليدية. وحتى لو لم تكافئ الثانية الأولى مادياً في المقدار، فإنها غالباً ما تتفوق عليها معنوياً في المقدار؛ ففارق العقيدة بين نفسية المرتزق المنحرفة الضعيفة ونفسية التأثير الحية القوية بعد معنوي ذو أثر عظيم في قلب الموازين.

إن المرتزق في حقيقة الأمر خاضع منحط في عبوديته مذعن في الأساس لقهر المادة وعالم الأشياء، وأما غريمه المتحرر من سلطان المادة - وإن قلت العدة والعتاد - فصاحب رسالة - أيا كانت - ترتفق به نحو عالم الأفكار.

حقيقة يدرك خطورتها المخططون الاستراتيجيون، ويضعون بناءً عليها البرامج الاجتماعية والثقافية بهدف شطب قيمة الحرية الإنسانية وروح المقاومة في نفوس أبناء الشعوب المستهدفة بنير الاستعمار والعبودية، بما يحرمها من الفارق المعنوي الذي يحسم صراعها الطويل نحو الحرية.

وبما أن فاقد الشيء لا يعطيه، فلن يهبك العبد ثورة أو ينتزع لك الحرية.

عندما أغارت بعض العرب على قوم عنترة بن شداد من بني عبس وأصابوا منهم، تبعهم العبسيون فقاتلواهم مما معهم وعنترة فيهم، فقال له أبوه - الذي لم ينسبه إليه كونه ابن جارية -: "كَرَّ يا عنترة". فقال عنترة: "العبد لا يحسن الكَرَّ، إنما يحسن الحلاب والصرّ". فقال: "كَرَّ وأنت حَرّ". فكرّ عنترة وأبلى بلاءً حسناً يومئذ، وكان من أشجع العرب.

قديماً كان - أو حديثاً - أحسن ويسعى العبد الفرّ - لا الكرّ، على غرار مشهد ذلك الجندي المدجج بالسلاح مطلاً ساقيه للريح فراراً من منتفض ليس له من العدة سوى الإرادة، ومن العتاد سوى سكين مطبخ، ذلك أن العبد لا يقوى على المواجهة بمبدأ رجل لرجل، وبضاعة الرجال في كل حال نادرة في حاضر الأيام. وبالطبع لا تخرج الجرذان من الجحر إلا عند سقوط ضحيتها، توسعها ضرباً إذ تحيط بها كالأكلة على قصتها.

طبعها تؤثر جيوش جحافل المرتزقة مبدأ السلامة وبضاعتها على كل حال الدنيا - لا الآخرة -، مستبدلة المواجهة المباشرة - رجل لرجل - بمواجهات غير مباشرة هي لمعارك الـ"جويستيك" والريموت كنترول أقرب، يتم فيها اصطدام الخصم عبر كبسة زر، ويا حبذا تفويض عبيد العبيد - إن وجد - على قاعدة "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون"، وكفى الله غير المؤمنين القتال.

مرتزقة بتلك الموصفات هي خير من يؤدي دور سيف المستبد وأداة الاستبداد، وبحجة الدفاع عن الكرامة تراها خير من يجرد المواطنين العزل من الكرامة - قبل السلاح -، بينما هي في واقع الأمر تلهم وراء حفنة من الدولارات في كل جحر بحجة ضرب الإرهاب.

المشهد الإقليمي العربي اليوم قمة في الجنون قيمته تتناسب طردياً مع كم الانحدار الحاصل في قيمة الإنسان، سواء كان مرتزقاً أو ضحية.

وبالأمس القريب كانت جثث جند المرتزقة المصريين تعود من ليبيا وجنوب السودان عبر بوابتي سيناء وواحة الفرافرة، فيما جثث المرتزقة الإيرانية تختلط - بلا توقف - بجثث عبيدها اللبناني والأفغانية والباكستانية والآسيوية، بالقدر نفسه الذي تلوثت به أيديها بدماء ضحاياها السورية والعراقية، تعبيراً عن فشلها الذريع في ترويض الضحية، لتقبل في النهاية ما يعرضه عليها أبالسة المجتمع الدولي وأذنابها المحلية والإقليمية.

وبعد كل أنهار الدم المسفوح تلك يطلع علينا عراب الخارجية الأمريكية بخطته الجهنمية للزج بجيوش برية عربية من مصر والسودان والجزائر في الجحيم السوري، ليستوي القوم في المحرقة الكونية. دعوة وظفت العبودية وانحراف العقيدة والبوصلة من قبل لإرسال ذات المرتزقة مذمومة مدحورة لمعارك غير معاركها الحقيقة. وعندما بدأت الخطة الجهنمية بقطع مياه النيل عن مصر والسودان بسد النهضة في منابع النيل، غاب المرتزق المصري - وصنه السوداني - لخطأ في التوجيه، فالبوصلة لا تعرف معركة الحقوق والكرامة الإنسانية، بل معارك الذل والمهانة بعد تنازلها عن تلك الإنسانية.

مرتزقونا - في واقع الأمر - مجرد دمى (في محارق كيري)، مصيرها الاصطفاف بجانب الظلمة لا الدفاع عن ضحايا الظلمة، متزاوزين قدس الأقداس على مرمى حجر كما تجاوزوا منابع النيل ولا عجب؛ الفرق بينهم وبين غريمهم المصططع (صبية داعش) لا يتجاوز حفنة من الشعارات يتبعها السفهاء من الطرفين، وبما أن سيد الطرفين واحد، فمصيرهما في تلك المحرقة واحد. هي محرقة لا يراد لها أن تنتهي، وتقول هل من مزيد من المرتزقة المغفلين - وما أكثرهم -... الأخ في جانب يقاتل أخاه في الجانب الآخر، ولا عزاء لكل من سلم إرادته وعقله وحريته - وياأسفاً - لشيطان مرید استغله.

المصادر: